ترجمات | قسم الدراسات الدينية | 14 مارس 2018

مدخل إلى الحملة الصّليبيّة الأولى

كلود كاهين
ترجمة: عبد الباسط منادي إدريسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018
All rights reserved © 2018

مدخل إلى الحملة الصّليبيّة الأولى[1]

كلود كاهين (CAHEN Claude)

تعريب: **عبد الباسط منادي إدريسي** (المغرب)

1 Cahen, Claude. «An Introduction to the First Crusade.» *Past & Present*, No. 6 (Nov., 1954), pp. 6-30

الملخّص:

يعود كلود كاهين في هذا المقال إلى حدث تاريخي على قدر كبير من الأهمية للشرق والغرب، وهو: الحملة الصليبية الأولى، وينطلق في دراسته هذه من مقاربة اجتماعية تنشد تقديم فهم اجتماعي تاريخي للحملة الصليبية الأولى، ومفاده أنّ عددا مهما من القِوى تضافرت لتساهم في الإجماع الغربي على المشاركة في الحملة على القدس المسلمة، وتأتي دراسة كاهين لتجلو الغبار عن الأسباب الحقيقية للحملة الصليبية بما هي تمظهر لإرادة القوة الغربية، وخليط من البحث عن الخلاص الأخروي، والرفاه الدنيوي، وكذلك كتصدير لأزمة الاحتقان الاجتماعي الداخلي في أوروبا، خاصة فرنسا التي كانت تشهد حركة إصلاح ومرحلة تبلورٍ لرؤية اجتماعية مدنية جديدة معادية للنظام الإقطاعي. إنّ عمل كلود كاهين الذي طبع استشراق فترة ما بعد الحرب في فرنسا يعتبر بداية لمرحلة جديدة في هذا الحقل المعرفي، مرحلة ساهم فيها إلى جانب المستشرق الأمريكي مارشال هودجسون، والدكتور أنور عبد الملك في رجّ بعض دعائم المسلمات الاستشراقية التقليدية، وهو ما أدخل هذا الحقل المعرفي بأكمله في مرحلة أزمة.

******

لقد أبهر موضوع الحملات الصليبية عددا كبيرا من الكتّاب في الماضي، ولا يزال يستأثر باهتمام عدد من المناصرين مهما اختلفت قناعاتهم الاجتماعية والسياسية، وليس الدينية فقط. ورغم ذلك، فكلّما كثُرت الكتابات عن الموضوع، ازداد شحّ ما قد ينفع المؤرّخ العلمي. لا يمكن نكران توفّر بعض الكتابات الجادة، وكذلك توفّر رُؤى جديدة عند بعض الدارسين. ورغم كلّ هذا، فالكرّاسات المتداولة لازالت تكرّس الهفوات التقليدية، في حين أنّ الأعمال الجادة عن الموضوع لازالت أيضا تحت طائلة صعوبات بنيوية، إضافة إلى نقاط ضعف سببها المنظور المتجدّد للتاريخ. تنتمي الحملات الصليبية إلى تاريخ الشرق والغرب معا، ويصعُب على مؤرّخٍ أن يُلمّ بالاثنين معا، وهذا المقال أقصر من أن يدّعيَ تقديم معالم لدراسة شاملة للموضوع. عوض ذلك، سأحاول تمحيص خصوصية سؤال الحملة الصليبية الأولى، موضّحا في الآن عينه معالم التقدّم الحاصل في البحث في المجال، ومقترِحا مسالك لدراسات مقبلة.

لقد اجتُرّت الكرّاسات بالتقريب حرفا حرفا، وبانتظام ميكانيكي لتسعة قرون ونصف فكرةً مفادها أنّ السبب، أو على الأقل السبب البديهي للحملات الصليبية كان الفتوحات التركية في الشرق الأدنى، ويقال إنّ ذلك شكّل تهديدا حقيقيا جدّا للمسيحية لزِم مواجهته بحدّ السيف. عند النظر إلى الأتراك في ضوء التاريخ المتأخّر للإمبراطورية العثمانية، نجد أنّ المؤرّخين اعتقدوا دوما أنّ الأتراك عرق غير متسامح البتّة. يجب العمل بجدّ على تصحيح هذه الرؤية التقليدية كخطوة أولى.

بحلول العام 1095، كان عدد من الشعوب المسيحية، والأرض المقدّسة نفسها خاضعين للمسلمين لأربعة قرون ونصف، ورغم ذلك لم تقم أيّ حملة صليبية. لقد كان موقف الإسلام تجاه غير المؤمنين وفيّا لمبدأين مُميزين منذ البدء، أوّلا: كان المؤمن مؤمنا، عبر تعاليم دينه، بواجب الجهاد، أو الحرب المقدّسة، وهدف الجهاد كان الإخضاع السياسي لغير المؤمنين، وثانيا: الإقرار بأنّ هذا الإخضاع لا يتضمّن فرض الدين قسرا، وكان لغير المؤمنين، وقتما أُخضِعُوا وأحيلوا إلى موقع التبعية، حقّ التمتّع بحماية القانون الإسلامي. كان هناك طبعا دائما انفلات للغضب بين الحين والآخر. الأكثر حرجا من بين هذه الانفلاتات كان اضطهاد «الحكيم» بمصر وسوريا في بداية القرن الحادي عشر. لقد ولّد هذا الحادث انطباعا عميقا في الغرب بسبب هدم المعبد المقدّس. عاد الحجّاج من الغرب إلى بلدانهم بهذا النبأ المُشين. جُنّ الحكيم، وانتهى الاضطهاد بموته. ورغم هذا فقد أسلم عدد من المسيحيين: يفسّر هذا بوضوح، ودون حاجة إلى أيّ نوع آخر من الضغوط، الامتيازات المادية والأخلاقية للتحول إلى دين السلطة الحاكمة. رغم هذا، من المحتمل أنّ عدد المسيحيين كان مساويا لعدد المسلمين بكلّ من فلسطين وسوريا خلال القرن الحادي عشر، بل أكثر من

ذلك لم تختلف حياتهم في بعض الأماكن كلبنان عمّا كانت عليه بعد قدوم الفاتحين الأتراك منذ الفتح العربي في القرن السابع.

أمّا فيما يخص الجهاد، فقد فَقَدَ، زمنا مهما قبل الفتح التركي، خصيصتيْ الهجوم الكاسح، والرهان الجادّ على الفتح اللتيْن امتلكهما في الجيل الأول بعد موت محمّد. فقد تواجد بالكاد على شكل هجمات متقطّعة منذ القرن الثامن، والتي ضعُفت حتّى أصبحت متباعدة، وكانت موجّهة نحو الأقاليم الحدودية مع العدو بهدف الحصول على الغنائم، ودونما فتحٍ مقصود. وقد فتُر بالتدريج الاهتمام بالحرب المقدّسة حتّى على الشكل المذكور آنفا، فقد كانت تهمّ الجنود على الحدود فقط. أمّا بقية المسلمين في مناطق داخلية، فلم تعد تهمّهم في شيء؛ فقد كان رجال الحدود من المسلمين والكفّار جنود استعمار على صلة واهية بالحكم المركزي، وانتهى بهم الأمر بإقامة صلات أخوّة بينهم عند انقطاع الغزو غير حافلين البتّة بالحدود والاختلافات الدينية. قدّمت كل من أرمينيا وإسبانيا أمثلة واضحة على ذلك العيش المشترك.

يصدُقُ القول بأنّه كان هناك إحياء في المشرق لفكرة الحرب المقدّسة خلال منتصف القرن العاشر. أتت مبادرةُ خوضها من بيزنطة؛ فقد استغلّ البيزنطيون الأزمة السياسية المؤقّتة في العالم الإسلامي وقرّروا استعادة أجزاء من آسيا الصغرى وشمال سوريا، واللتين فقدتهما الإمبراطورية لصالح المسلمين لثلاثة قرون مضت على ذلك الحين. تخلّت الدول الإسلامية على سلالة الحمدانيّين الحاكمة في حلب، وتركوها في مواجهة الهجوم لوحدها. كان مؤسّس تلك السلالة الحاكمة، ويدعى سيف الدولة، قد حصل على تأييد البدو، وعصابات النهب، وكذلك الشعراء، الذين كانوا تحت سحر الشعر العربي البطولي القديم، والذين كانوا مُشكّلي الرأي العام أو صوته الناطق. قاوم سيف الدولة الغزاة بضراوة، وردّ الصاع صاعيْن أحيانا. وكانت مقاومته تلك هي ما استعاد بريق الجهاد من جديد، لكنّ هذا البريق خبا بعد وهلة. فقد أصبح الناس مُتعوّدين على الانتصارات البيزنطية، ولم يتشكّل رابط تحالف أو تنافر بين مسيحيّين ومسلمين ضدّ مسيحيّين ومسلمين آخرين كما حدث في القرن الحادي عشر.

لم يدم أمدُ روح الجهاد إلاّ في منطقتيْن، وكانت موجّهة هناك ضد الوثنيين، وليس ضدّ المسيحيّين: أوّلا بين جماعات المحاربين الموغلين في التوحّش والتطرّف تحت حكم المرابطين، وثانيا في آسيا الوسطى في منطقة «سير داريا»، بين الغزاة المتطوّعين أبطال الإيمان: وهم يمثّلون نوعا من الأنظمة الدينية المسلّحة، إذ أحيوا تقليد الصراع الخالد ضد تُرْكِ ما وراء الحدود بين الإيرانيين المقيمين و«الطورانيين» الرُّحّل. لم يكن من قبيل المصادفة حصول التطابق الزمني، الذي كان سيمنح هؤلاء الرجال، مشارقة وغربيين، أهمّية جديدة في هذا التاريخ للعالم الإسلامي.

شكّل الغرب المسلم صورة للفوضى السياسية في القرن الحادي عشر، وشكّل تعبيرا عن الانحطاط والتردي في عيون فقهاء القانون، ورجال الدين، وخبراء الفقه. لقد وجدوا أنّ من السهل الفوز بقلوب المتطرّفين المتعصّبين لخطة «إنهاء» هذا الفساد «إنهاء تاما»: لقد استمالوا المرابطين الذين كانوا قد فتحوا جزءا واسعا من شمال إفريقيا. ولم يكونوا ليفوزوا بسهولة في إسبانيا لو لم تكن الظروف مواتية، فالمجتمع الإسباني كان أكثر تحضّرا، وأشد رفضا لتدخل «البرابرة». لقد وفّر المسيحيون تلك الظروف دون إرادة منهم لذلك. فقد كانت الحرب بينهم في الشمال وبين المسلمين في جنوب شبه الجزيرة (الإيبيرية)، مع فترات احتدام وفترات هدوء، قائمة لثلاثمائة سنة، لكن آنذاك كانت قد انتهت بالنسبة إلى المسلمين، بسبب الانشقاق الداخلي في صفوف الإسبان. أما بين المسيحيين، فقد اشتعل سعير الحرب من جديد، ويعزى تجدد هذا الاهتمام إلى انقسام وحدة المسلمين. إضافة إلى ذلك، وهذا مثير للاهتمام، لم تُعلنِ الحرب من طرف مسيحيي إسبانيا فقط، الذين كانوا قد تعودوا على الجمع بين الحرب، وشروط «العيش السلمي المشترك»، بل أيضا من قبل محاربين مناصرين للبابوية، وهم الفرنسيون الذين كانت هذه الشروط غريبة عليهم، والذين فكروا في الحرب والنهب تحت غطاء الواجب الديني. تقبّل مسلمو إسبانيا المرابطين بغرض صدّ هذا التهديد. وهكذا استعادت إسبانيا المسلمة وحدتها السياسية مع نهاية القرن الحادي عشر، وكان ثمن ذلك الخضوع لقيادة قوم تحرّكهم روح الحرب والتعصّب.

حصل تطوّر مشابه في الشرق، فقد بدا وضع المسلمين من خلال تشرذمهم السياسي والاجتماعي والديني وضعا مشينا للقادة الجذريين هناك أيضا. لقد بحثوا، بناء على ذلك، عن وسيلة لاستعادة دورهم الريادي، ووجدوا الترك كذلك، فبحلول ذلك الحين كان أمر تحويل الأتراك إلى الإسلام قد تم فعلا. كان أمر إقناعهم، وهم متحمسون وجادّون وحديثو عهد بالإسلام، بضرورة التحرّك الجماعي أمرا سهلا. ووجد قادتهم، وهم قادة عسكريون مهرة، ضالتهم في هذا الأمر. لم يخرج الغزاة على الأتراك، لأنهم بدورهم أصبحوا مسلمين. فقد أصبح الأتراك على الضد من ذلك أخْلص جنود الغزاة. تبنّى الأتراك إسلام الغزاة لأنّهم تحولوا إليه على يدهم على حدود آسيا الوسطى، وتوافق الدين الجديد مع نمط حياتهم وتعوّدِهِم على الغزو. وأصبحوا وقد تم أمر غزوهم لبني جلدتهم إلى الشمال، وكان هؤلاء ما زالوا وثنيين. وكان نتيجة ذلك إخضاع الأتراك لجل آسيا المسلمة لصالح السلالة السلجوقية. فقد كان الترك، أو التركمان كما كان يطلق عليهم، الذين أتموا الفتح زيادة على ذلك رُحّل، وقد ألهمهم حماس الغزاة وتوافق ذلك وتوقهم إلى تحويل أعمال غزوهم إلى كل الثغور حيثما أقاموا كما أملت حاجة تشكيل الإمبراطورية السلجوقية.

لقد كان لهذا الأمر تأثير مزدوج فيما يخصّ وجهة نظر موضوعنا؛ أي العلاقات بين المسلمين والمسيحيين. لم تتأثر بأي شكل حياة المسيحيين داخل الإمبراطورية السلجوقية. فقد حكم السلاجقة، وهم ورثة التقليد الأرثوذكسي الإسلامي، رعاياهم من غير المسلمين كما تُملي حماية الإسلام ذلك. بينما عانى

المسيحيون خارج حدود العالم الإسلامي من تجدّد دماء الحرب المقدّسة كما كانت عليه خلال التاريخ الإسلامي الأول. وكانت نتيجة ذلك عودة جديدة للتوسع الإسلامي الذي اتخذ من تصدع البيت البيزنطي امتيازا ليستولي على جلّ آسيا الصغرى؛ أي تقريبا نصف إمبراطوريتهم. تمّ هذا الفتح على الضد من إرادة السلاجقة، الذين كان اهتمامهم منصبّا أكثر على القضاء على الهرطقة في العالم الإسلامي أكثر منه على إخضاع الكفار خارجه. لقد سلّموا أنفسهم للتركمان الذين كانوا سببا للمشاكل وغاية في الاستعصاء على الحكم. كان التركمان المتعودون على حياة الرّحّل، والرافضون لتضييق الحكومة المركزية، ولحقوق الملكية الفردية، والذين كانوا أنصاف همج متعوّدين على النهب وسفك الدم، عرقا يصعب السيطرة عليه بالنسبة إلى كل حاكم. كان قرار حملهم على أن يكونوا جزءا من الإمبراطورية السلجوقية أمرا صعبا، لأنّ الإقليم لم تتواجد به إدارة سلجوقية، ولم يكن بمُستطاع الترك خلق إدارة بعد، كان أمر خلق حكم هناك يعني خروجا على الإمبراطورية البيزنطية، والتي فضّل السلاجقة بقاءها لاستعمال عرشها ضد الترك أنفسهم. لذلك تركوا الترك وما يريدون في آسيا الصغرى، وكانت بيزنطة غير قادرة على صدهم. كان من تبعات ذلك مرحلة قسوة ومعاناة وهدم. والتاريخ الشاهد على ذلك كان كارثة بيزنطة في «مانزيكيرت» سنة (1071)، حيث أُسِر الإمبراطور.

كان هذا كارثيا على صعيد السيطرة الإقليمية للإمبراطورية البيزنطية، ومرحلة معاناة مرّة لمسيحيي آسيا الصغرى، يجب الإقرار بتحفّظيْن اثنين هنا: أوّلا، لقد كان نزوع التركمان المُهدِّم مماثلا بالتقريب في الدول الإسلامية التي قاومتهم. ثانيا، وبينما استمر واقع الحرب على كل هامش آسيا الصغرى الغربية، عادت المياه إلى مجاريها في مناطق أخرى حيث مرّت موجة التدمير، ونجد أمامنا صورة مغايرة تماما.

***

يجب التذكير بأنّ مجتمعات المسيحيين في الشرق الأدنى لم تكن واحدة، بل متعددة. ضمت الكنيسة الرسمية في الإمبراطورية البيزنطية الأغلبية الساحقة من المؤمنين الخاضعين لبطريركية القسطنطينية، وكان هناك أيضا مسيحيون ذوو الشعيرة اليونانية، لكن الأغلبية كانوا ذوي لسان عربي في مصر وسوريا وأرمينيا، وكانوا أتباع بطريركيات أنطاكية والقدس والإسكندرية. وكان هناك أيضا كنائس أخرى مستقلة عن القسطنطينية وروما منذ زمن طويل: مارونيّيي لبنان، مستقلين واقعيا وليس شعائريا، ويَعَاقِبة المونوفيزيين (المؤمنون بوحدة طبيعة المسيح) في سوريا، وفي بلاد ما بين النهرين والفرات الأعلى، وأقباط مونوفيزيين في مصر، والنستوريين في بلاد ما بين النهرين، وفارس وآسيا الوسطى، وأخيرا الأرمن الذين كانت لهم كنيستهم القومية. كانت كل هذه كنائس تعود لرعايا كانوا على نقيض مع الكنيسة اليونانية، وسبب ذلك الأحقاد البينية بين تشكيلاتهم الهرمية المستقلة، وحقوق الملكية القائمة، وعلى رأس ذلك الاختلافات العرقية،

أكثر منه الاختلافات العقدية مهما كانت حدّة هذه الاختلافات عند رجال الدين. لقد رحّبوا أوّلا بالفتح العربي كخلاص من الكنيسة اليونانية المُتغوّلة ومقترفة الآثام. يئِس مسيحيّو آسيا الصغرى من غير اليونانيين من استعادة السلطة البيزنطية. لم تكن الكنيسة اليونانية في القرنين العاشر والحادي عشر قد تملّت من التجربة؛ أي أن تكون أكثر تسامحا، أكثر مما كانت عليه قبل الفتح العربي. لذلك ومهما عظُمت معاناة الكنائس المحلية الأخرى من الغزو التركماني، فقد كانوا مقتنعين باستحقاق اليونانيين للغزو، حتى أنّ بعض المسيحيين الأصليين في حالات استثنائية مدّوا يد العون للتركمان ضد اليونانيين.

عموما، ليس هناك شكّ في أنه في الفترة الموالية مباشرة للاحتلال التركي، كان المسيحيون الأصليون من غير اليونانيين قد استعادوا على حساب اليونانيين ما يعادل الهدم التركماني المؤقت الذي كان قد كلّفهم الكثير. لم يكونوا، فقط، قد تحرّروا من القهر الديني والضريبي لبيزنطة، بل استفادوا من جهل الترك بالحاجة إلى تأسيس حكم عليهم، فتُركوا لإدارة شؤونهم الخاصة. من المحتمل أيضا أنهم ورثوا على مستوىً كنائسي بحت كنائس كانوا قد استولوا عليها من اليونانيين، أو كان الأخيرون قد تخلوا عنها، كما نعلم أنه قد حدث في أنطاكية. لم يستفد الأرمن بقدر ما ستفاد المونوفيزيون، لأن بعضهم حافظ على ولائه لليونان، وكان من بين الأرمن المعادين لليونان أيضا أمراء حرب حاولوا إخضاع أقاليم لنفوذهم أسفل مرتفعات الطوروس. أما بالنسبة إلى المونوفيزيين الذين فقدوا أيّ طموح سياسي فلم يكن لديهم أي ارتباط بأية قوى خارجية ولم تغرهم أية منفعة.

كانت الفتوحات التركية بالنسبة إلى اليونانيين كارثة. لكن يجب أن لا نبالغ في تأثيرها. يصْدُق القول بأنّ رجال الكنيسة اليونان كانوا موضع شكّ بالتواطؤ مع بيزنطة في عيون الأتراك. ورغم ذلك، لم تكن هناك معارضة منظمة لإقامتهم بالبلد. فقد سمح سليمان ابن قتلمش، فاتح آسيا الصغرى وأنطاكية للبطريرك اليوناني بالاستمرار في الإقامة في المدينة، ولم يمنعه حتى من السفر إلى القسطنطينية. تأثر سليمان، وهو مسلم، باعتبار نفسه ضابط باسيليوس. ترك عدد من المطرانات اليونانيين آسيا الصغرى مثل عدد من رعاياهم خوفا، ولكن أكثر من ذلك لسبب آخر هو شظف العيش أو لتضاؤل عدد المؤمنين أكثر منه بسبب تهديد آخر. أقام بعض رجال الدين، وفي مطلق الأحوال، فقد أقام أيضا الكهنة والقسس في أسفل الهرم الكنسي، وبقيت معهم شعيرة الكنيسة التي قلّ مرتادوها، لكنها لم تختف نهائيا. تقوّت الدولة الإسلامية في آسيا الصغرى وكان وضع المسيحيين من كل الكنائس مماثلا لما كان عليه في أراض تحت نفوذ إسلامي.

لأجل فهم الوضع تماما في فلسطين، لا بد من البدء بوقائع وتواريخ لا يقدّرها حتى الخبراء حق التقدير. يجب أن نضع ببالنا أولا أنّ البدو جعلوا من فلسطين ساحة للفوضى ومرتعا لانعدام الأمان زمنا طويلا قبل وصول الأتراك، ولم يتمكن الحكم الفاطمي من إنهائهما. حافظت الإمبراطورية البيزنطية على

العلاقات الدبلوماسية مع الفاطميين الذين كانوا يمثلون الهرطقة الإسماعيلية في العالم الإسلامي، والتي أقسم السلاجقة على اجتثاثها، وهكذا تمكنوا من مساعدة المسيحيين، خاصة مسيحيّي الكنيسة اليونانية لإعادة بناء أنقاض اضطهاد الحكيم. فتح قائد تركماني يدعى عزيز فلسطين في 1071، وتصرّف حسب حاجته وليس لصالح السلاجقة. وجُعِلت (أي فلسطين) لاحقا سنة 1079 جزءا من حكم السلاجقة، وشكّلت إلى جانب سوريا إقطاعة الأمير توتوج، والذي منحها عام 1086 هدية لقائد تركماني آخر هو آرتوك، الذي كان بدوره في خدمة السلاجقة مدة طويلة، واستعادها الفاطميون أخيرا من ورثة آرتوك بعد موته.

من المرجّح أنّ القضاء على التأثير البيزنطي أفاد المسيحيين من غير اليونان في القدس كما في مناطق أخرى. فُرض على عزيز تعيين مسيحي يعقوبي كحاكم للمدينة المقدسة، لأن تعيين أي مسلم كان لِيُشكك بولائه للفاطميين. سنة 1076 أجهض الحاكم التركماني انتفاضة للمسلمين في المدينة بسفك دماء غير مسبوق، بينما لم يتعرض المسيحيون الذين كانوا قد عُزلوا في أحياء خاصة منذ إعادة بناء الأنقاض في منتصف القرن الحادي عشر بأذى. سُمِح حتى للبطريرك اليوناني سِمعان بالإقامة في المدينة. يمدح الكاتب المجهول لكتاب «تاريخ بطريركات (قبط) الإسكندرية» عزيزا، وحدثُ المدح مهم لأن نفس الكاتب عاد ليشتكي من عدم تسامح الصليبيين سنين بعد ذلك. (يعترف) بأنه من الصحيح أنّ التركمان أنكروا كرامة النار المقدسة التي نزلت في عيد إيستر من كل عام لتشعل شمعة في كنيسة المعبد المقدس، لكنها لم تنزل أبدا سنة قدوم الفرنجة. صدم أرتوك روح المسيحيين (ربما) بإطلاق سهم نحو سقف المعبد المقدس، لكن تلك كانت الطريقة التركية المتوارثة للتعبير عن ملكيتهم للمكان، وليس إشارة لتعصبهم الديني.

كان وضع المسيحيين طبيعيا تماما في كل البلاد تحت حكم الإمبراطورية السلجوقية، ومن ضمن ذلك فلسطين بعد سقوط عزيز. كان التردد من منح وظائف لغير المسلمين في مناصب مهمة بالدولة يتعاظم أكثر من أي نظام سابق، وذلك لم يكن لِيهمّ الناس العاديين، ولم يكن ذلك أمرا نظاميا. اشتكى الجميع حتى المسلمين من الرعية من بطش التركمان. تمّ تنظيم الإمبراطورية الجديدة بسرعة فائقة. وأغدق الجميع مسيحيين ومسلمين آيات المدح على السلطان السلجوقي العظيم مالك شاه (1073-1092) ممّن لم يكن بمقدورهم إسقاطه عن عرشه. وترمز فترة حكمه إلى عودة النظام، والأمان والعدالة للجميع. قد يكون الأسلوب الأدبي الأرمني لفرد كماثيو الإيديسي أو ساركافيج أو ستيفن أوربيليان مشبعا بالبلاغة، لكن الانطباع ذاته يتولّد عن النثر على المقاس كسجلاّت ميكاييل السوري اليعقوبي وعمر بحر صليبا النستوري. من الصحيح أنّ موت مالك شاه سنة (1092) بصم على بداية مرحلة تجاذب، لكن ذلك لم يكن ليُضيق على الناس شأنه شأن النزاعات التي ملأت صفحات تاريخ الإسلام المبكر، ولم تقم ضدا على المسيحيين في مطلق الأحوال. من المعروف اليوم أنّ الأتراك سجنوا البطريرك جون الأنطاكي سنة 1097، لكن المسيحيين كانوا، وبدعم من البيزنطيين، آنذاك تحت أسوار المدينة. وبالمثل، فقد نفى المصريون عددا من الوجوه المسيحية البارزة

يوم كان الصليبيون يقتربون من القدس، ومن ضمنهم سمعان الذي غادر إلى قبرص: لكن لا يمكن اعتبار الحالتين أكثر من إجراء احتياطي أوّلي.

من المُفصّل في شأنه اليوم أنّ المسيحيين من غير اليونان لم يستنجدوا بالغرب، وليس بالبابا حتى. لا يُظهر تبادل الرسائل بين غريغوري السابع وبطريرك أرمني أيّا من هذا. رغم أنّ المشارقة سبق وأن التقوا بعدد من المرتزقة النورمنديّين، إلاّ أنه كان من الصعب عليهم تصوّر وفود جيش فعلي غربي، حتى لو تمنّوه. ليس هناك شيء يظهر أنهم تذمروا من قدرهم أكثر من المعتاد، أو أنهم عبّروا عن أمر مماثل سوى عن أمنية الخلاص التقليدية. من المُسلّم به أنّ الغرب سبق ورأى رهبانا فلسطينيين يسألون الصدقات لكنيستهم، بغية إثارة شفقة المؤمنين، لكن ذلك لم يكن شيئا جديدا، فقد كان المشهد مألوفا، وأصبح أكثر ألفة بعد هدم المعبد المقدّس. لا توجد أسباب للتفكير بأنّ عدد الشحاذين ازداد مع الفتح التركي، أو زاد منسوب قوة جاذبيتهم، ممّا يستحق الوقوف عنده أنّ كتّابا مشارقة حاولوا تفسير أصل الحملات الصليبية ولم يتكلموا عن معاناة المسيحيين الشرقيين. يعود «ابن الأثير» إلى السياسة الهجومية للنورمنديين من إيطاليا، ويقدّم مسلم آخر يدعى العظيمي، ومسيحي يدعى ميكاييل السوري، والذي كان واعيا بمفهوم الإخاء المسيحي، قصص الحجّاج الغربيين التي تنهل من تجربة غربيين مقيمين في الشرق.

***

لكن هل من حقيقة في قصص إزعاج الحجاج؟ فقد توافر لديهم خيار طريقين من الغرب إلى فلسطين، بعضهم عبر قارة أوروبا، ثم الإمبراطورية البيزنطية فآسيا الصغرى. بالنسبة إلى هؤلاء بالتأكيد كانت فوضى التركمان المستمرة في آسيا الصغرى تعني منع العبور. لكن ذلك لم يعْنِ استحالة الحج بالكامل، كان من الممكن السفر عبر البحر إما من القسطنطينية أو من إيطاليا. كان الطريق الثاني هذا هو الطريق الذي اتبعه التجار الإيطاليون لأجيال. ولم يتأثر بالفتح التركي الذي لم يصل إلى كل موانئ سوريا. حتى الموانئ التي تأثرت كأنطاكية كانت لا تزال على صلة بتجارة البندقيين (تجّار البندقية) وآخرين كما كانت العادة، علما أن البندقيين كانوا من المساندين الأشداء للحملات الصليبية. لم يمنع أي شيء الحجاج من الحج إلى فلسطين بحرا. قد تكون الفوضى التركمانية وصلت إلى فلسطين أيضا لعام أو عامين، لكننا نعرف أن رحلتي حج سبق أن اعترض سبيلهما البدو سنتي 1055 و1064، وذلك قبل مقدم الترك، وبحلول العام 1080 ساد أمان أكثر مما سبق لفترة طويلة. قد يكون اختفاء شبه حماية بيزنطة على القدس عمِل لصالح رجال الدين اللاّتين، أو على الأقل هذا ما تُفيد به فقرة في نيكون من الجبل الأسود، إن كان بالإمكان الاعتماد على تاريخه. لقد كان للآمالفيين نُزُلين في القدس، وقد يكونان أقدم من الفتح التركي، لكنهما بالتأكيد استمرا بالعمل بعده. لقد استمر توافد الحجاج حقيقة كما في السابق. صحيح أنه لم يسبق أن حظيت رحلة بالاهتمام

كما حظيت به رحلة عام 1064، من وحي التجربة أنّ جمعا من مثل ذلك الحجم أثار جشع البدو لامتلاكه. لكننا نعلم عن حالات حجاج عديدين أنهم وصلوا إلى القدس التركية كما وصل آباؤهم إلى القدس العربية.

كانت لديهم مظالم، وهذا صحيح، لكن يجب التذكير بأنّ معظمهم معروفون لدينا فقط من كتابات لاحقة على الحملة الصليبية، وأن مظالمهم تلك تقدم كتبرير لاحق على الواقع. حتى إن أقررنا بحقيقتهم، فإنهم سيبقون مثيرين للضحك فقط، ولا يتعدون كونهم تعبيرا عن احتقار بائس كما يحدث دائما عند تقارب دينين معاديين لبعضهما البعض (كما كان يتغوّط ويبول المسلمون في الكنائس مثلا وهلمّ جرّا)، وأحيانا يعبّرون عن جهل الحجاج بمشاكل الحكم المتقدم. كان من الطبيعي أن يجدوا صعوبة في فرض دفع أتعاب للدخول إلى المدينة المقدسة بعد رحلة مكلفة، وكان يسبق وصولهم ضرورة الأداء أيضا ليتملكوا حق عبور الأرض البيزنطية، ومن الصعب اعتبار هذا علامة على التعصب. حتى أكثر التجارب إذلالا والمعروفة لدينا، حيث مُنع بعض الحجاج ممن لا مال لهم من دخول الأماكن المقدسة، تعود إلى مرحلة حج فولك نيرّا، كونت منطقة آنجو، وتعود إلى ما يقارب الستين سنة قبل ظهور الترك في هذه المنطقة.

بخلاصة، كان الغزو التركي لآسيا الصغرى أمرا كارثيا لبيزنطة المسيحية، والذي أتى ببعض العزاء للمسيحيين من غير اليونان، أما بالنسبة إلى مسيحيي الدول المسلمة، وخصوصا فلسطين فقد أتت (مع الغزو التركي) معاناة مؤقتة تشاركوا مرارتها مع جيرانهم المسلمين، ومع تحول هذه المناطق إلى السيطرة السلجوقية، وجد المسيحيون أنفسهم في وضع مشابه مألوف تحت الحكم الإسلامي، بينما انزعج الحجاج من فرض تغيير طريق معروف، لكن لم يُمنعوا من استعمال طريق آخر، ولم تتأثر حياتهم داخل القدس أبدا.

هذا هو أصل الإشكال: لماذا إذن لما كان الخطر محدقا ببيزنطة تم توجيه الحملة الصليبية لإنقاذ المعبد المقدس الذي لم يكن في خطر؟ إنّ هذه تُعدّ حالة لتعويض الحافز. لم يكن الخطر الذي أرادت الحملة الصليبية تفاديه الخطر الحقيقي.

من الطبيعي أن يكون ببال الصليبي العادي أنه ليس هناك تعويض، بل التباس: المونوفيزياط واليونانيون، آسيا الصغرى وفلسطين، والحكيم ومالك شاه، اختلط كل هذا في ذهنه ليشكل صورة مشوّشة للشرق ينيرها الصليب. لقد تراءت له الكنائس المهجورة واعتراض الحجاج كما صورته له أبواق الدعاية. كان أكثر ما في الأمر شعور مسيحيّ مجرّد، والإذلال الذي شعر به لسيطرة الإسلام على أماكن حيث عاش المُخلّص. لكن حتى لو كان هذا الالتباس قد جعل تعويض الحوافز ممكنا، فإنه لا يكفي لوحده لتفسير كيفية حصول التعويض. لذا هنالك مشكل آخر. راجع الغرب كل شيء كان قد عرفه يوما عن الإسلام، فأصبح ذلك الذي غذّى إحساسا بالامتعاض فقط الآن حافزا للفعل، أما ما تحمله الناس بهدوء تام فقد أصبح لا يطاق. يمكن البحث عن تفسير لهذه الظاهرة في وجهتين: في الدعاية البيزنطية، أو في الوضع في الغرب.

***

كان هناك، على الأقل، كاتب قروسطوي واحد كان واعيا بمشكل التعويض. لقد أثار ب. شرانس الانتباه إلى فقرة من مؤرخ بيزنطي في بداية القرن الثالث عشر، والتي تفيد بأنّ أليكسيوس كومنينوس نفسه هو الذي جعل من إنقاذ الأماكن المقدّسة موضوعة دعايته الأساس، وهو يعلم أنّ الاستنجاد بالغرب لأجل الحفاظ على بيزنطة أمر غير مجدٍ. لقد كانت هذه الموضوعة حقا مفيدة بما يكفي لبيزنطة لأجل ألا تتدخل الآن، لقد استُعملت من قبل حين قاد جون تزيمسكس سنة 975 حملة لأسوار المدينة المقدّسة. لكن تلك كانت مرحلة استثنائية. أمّا السياسة البيزنطية، فقد كانت موجّهة أكثر نحو ضمان استقرار حدود آسيا الصغرى، أكثر منه إلى وجهة غريبة كالقدس، كما أنه ليس هناك سبب للاعتقاد بأن بطريركية القسطنطينية كانت مصرّة على امتلاك بطريركية القدس، خاصة وأنها رأت بأم عينها إدماج بطريركية أنطاكية إلى الإمبراطورية. وبتأنّ، فقد انشغل إمبراطوريّو بيزنطة بإعادة بناء المعبد المقدس، لكن لا يمكن القول بأن القدس احتلت نفس المكانة في العقل الغربي كما لدى المسيحية في الشرق، يونانا أو غير يونانٍ في القرن الثالث عشر. نعم، توافد اليونانيون إلى الحج لكن، باستثناء المقيمين في الأقاليم المجاورة، ليس بأعداد كثيرة. أما فيما يخص هذا المشكل في مطلق الأحوال، فلا يبدو أنّ الدليل في المؤرّخ البيزنطي يُعتمد عليه، فهو مؤرّخ بقرن متأخر على الأحداث التي يعالج، ويهمّنا أساسا فيما يخصّ وعيه بالمشكل في ذهن كاتب عرف عنه أنه سعى وراء اكتشاف أساس للتعاون الفرنسي البيزنطي، لكن في نهاية الأمر، فقد نظّم البابا الحملة الصليبية، ومن سيصدّق اليوم أنّ البابا التبس عليه أمر القدس والإمبراطورية البيزنطية؟ وإن كان جمعهما، سواء اقترح ذلك عليه أحد أو لا، فإنّ ذلك بدا له جيدا، وسبب ذلك يمكن إيجاده فقط في سياسة البابا نفسه، وفي الوضع في الغرب.

ورغم هذا، فإنّ الأمر لا يستتبع وجود أسباب تمنع تقليل شأن نداءات النجدة البيزنطية، فليس هناك شك بأنّ الاستنجاد حقيقة تاريخية. ولكن لفهمه لا بد أن ندرك أمرا آخر. فقد كان هناك شرخ مفتوح بين كنائس القسطنطينية وروما منذ 1054، وتلك حقيقة أوهنت علاقاتهما على المستوى السياسي أيضا. وعلى كل، فقد جعلت الأبحاث الجديدة تأويلا ممكنا وغير جذري لهذا الشرخ أكثر من تأويلات سابقة. فمن جهة، كان ما حدث 1054 يهم إعلان الفصل الذي سبق على وجوده في الواقع زمن طويل، ولم يكن ظاهرة جديدة، لقد مثّل ذلك ردّة فعل خالصة على التقارب الذي أثاره الخطر الذي جسّده التوسع النورمندي في جنوب إيطاليا في منتصف القرن الحادي عشر بالنسبة إلى القسطنطينية وروما على السواء. من جهة أخرى، لم يكن لهذا الشرخ الذي نعلم اليوم أنّه أوسع الخرق واستمر، أن يجزم بأنه نهائي سوى في أفئدة بعض المتطرفين. فلم يكن الأوّل من نوعه، ولم يقطع حبل الانتماء إلى الكنيسة الكونية، كما الهرطقة، والكنيسة رغم كونها منقسمة بالخلاف وبالهرميّات المتنافسة، فإنها حافظت على بقائها. وأخيرا، رغم كون إرادة الانقسام قويّة

في بطريركية القسطنطينية، فقد كانت ضعيفة في أنطاكية التي لم تستفد بقدر القسطنطينية، وكانت أضعف في القدس حيث وقف البطريرك جنبا إلى جنب، أبعد من الحدود البيزنطية، مع الشعائر المسيحية كلها، ومن ضمنهم اللاتين. اتخذت مفاوضات الدعم العسكري لبيزنطة عبر الوسيطة البابوية في ظروف كهذه شكل صفقة روحية زمنية. كان على كل إمبرطوريّي بيزنطة المتلهفين للحصول على الدعم السياسي أخذ رأي البابا بعين الاعتبار، وامتلأت نفوسهم أملا بأنّ استعادة الوحدة يستتبع الدعم العسكري. لربّما كانت روما ترغب في أن تجعل ميل اليونانيين إلى قبول الوحدة الدينية ثمنا لإقناع أمراء الغرب ليتوافدوا لمساعدة بيزنطة.

لقد كان يُنظر إلى الترك على أنّهم ناهبون ولا يطاقون حقّا حصرا لمدّة خمسة عشر عاما، لكن دون أن يشكّلوا تهديدا جادا لوحدة الإمبراطورية الترابية. لقد تمّ تعويض تجنيد السكّان الأصليّين في جزء منه بتشجيع التحاق مرتزقة خارجيين خاصة النورمنديين لأسباب سياسية داخلية. لكن لم يكن قد بدا ضروريا أمر توفير جهد مضاف قبل زمن رومانوس ديوجين الرابع (1068-1071). كان هو الوحيد الذي حاول إقرار السلم مع النورمنديين في إيطاليا من أجل أن يخلُص لمواجهة الترك دون جدوى. وأفلح ميكاييل السابع بعد كارثة مانزيكرت في عقد السلم وأكثر من ذلك في عقد تحالف سنة 1074 مخاطرا بالتنازل التام عن إيطاليا. وحاول في الوقت عينه التقرّب من البابا، لكن محاولته باءت بالفشل بسبب عراقيل دينية، وتشبث بالمحاولة فقط بالنيابة عن بيزنطة كلما امتنع عليه عقد الحلف مع النورمنديين، وكان الحلف الأخير ليكون نافعا في حينه. لقد اتخذ غريغوري السابع الذي كان قد أصبح بابا للتو، على كل، مسألة نجدة الإمبراطورية البيزنطية أمنية فؤاد، وتصرّف على أساس ذلك في الغرب.

هناك مسألة أخرى شغلت بال الكنيسة أوّلا، والتي بقيت مسألة عالقة لمدة قرن في الإمبراطورية الغربية، والتي أصبحت يومها تتطلب حلاّ طارئا وهو تحرير الكنيسة لنفسها من ربقة الإمبراطورية نتيجة حركة الإصلاح، وكانت الكنيسة تتجه إلى صراع مفتوح. أصبح لزاما على البابوية منذ 1059، من أجل أن تتمكن من مقاومة تهافت الإمبراطور، أن تفكر في قلب تحالفاتها، فبادرت إلى مفاوضة النورمنديين الذين كانوا مثلهم مثل أقربائهم الشماليين يبحثون عن التعاون مع رجال الدين في القضايا السياسية.

انتهت المفاوضات بعقد تحالف. وبينما تم إنهاء الخلاف مع الإمبراطورية خلال فترة الإمبراطور هنري الرابع، وفي ذات الحين حيث وجد النورمنديون صعوبة في التخلي عن عادات النهب والسلب لديهم، أصبح هذا الحلف هشا نسبيا تحت حكم ألكسندر الثاني. بحلول العام 1076 أصبح هناك شرخ كبير وأصبحت الحرب بين الإخوة، البابوية والإمبراطورية، قائمة. لقد أصبح روبرت جيسكار، القائد الأساس للنورمنديين، أميرا قويا. أصبح التحالف أمرا واقعا، ولم يكن غريغوري السابع في موقع مناسب لرفضه. أُطيح بمايكل السابع في بيزنطة سنة 1078، بينما كان روبرت كعادته متلهفا لامتلاك السواحل اليونانية ومعابر أوترانتو.

اشتعل أوار الحرب بين روبرت وبيزنطة وحصل الأخير على المباركة البابوية لحملته كثمنٍ لذوده عن البابا ضد هنري الرابع. كان المقصود من ذلك الرفض القاطع لأي نهج من شأنه إقرار الأخوّة المسيحية مع الشرق.

لكن في سنة 1085 توفي كل من جيسكارد وغريغوري، ولحق موتهما موت فيكتور الثالث، وأصبح الحكم في النورمنديين بيد روجر أخ جيسكار، الذي كان قد استرجع صقلية من يد المسلمين. ولم يحفل روجر بالحرب مع بيزنطة، الأمر الذي كان ليكلفه دعم عدد من يونانيّي صقلية وكالابريا القيّم في صراعه مع المسلمين، بينما كان اهتمام أليكسيوس كومانوس الأول الذي طرد خليفة ميكاييل (نيسوفوروس بوتانييتس الثالث 1078-1081) منصبّا أكثر على عتاد الصراع مع تُركِ آسيا الصغرى ومع بني عمومتهم البيشنج (قوم رحل من أصول آسيوية وسطى) الذين شكّلوا تهديدا لبلغاريا. أخيرا كان البابا الجديد أوربان الثاني سياسويا لا همّ له في النظر إلى بيزنطة، وهي تساعد هنري الرابع أو منافسا للبابا الذي أرسى هنري قوائمه، أو المخاطرة بتحالفٍ الإمبراطورين، والذي كان سيشكل مدخلا لاتحاد الكنائس ضد البابا. لم تفلح المفاوضات التي دامت سنة 1089 كلها بأي أمر. ولكنها بالتأكيد خلقت جوا جديدا من تبادل الآراء، وتُرِك الخلاف لينتهي خلال السنين التي قدمت، وساد الاحتياط من خطر أي شيء قد يحييه، ودون شك ساد أمل في أنّ التعاون المستمر على مستويات أخرى قد يؤدي بالتدريج إلى إحياء الاتحاد. جمع البابا لأليكسيوس نفرا قليلا لمواجهة البيشنج، بينما ساعد الانفراج الإمبراطور البيزنطي لتجييش آخرين من بلاد كونت فلاندرز روبرت الذي تعرف عليه أليكسيوس منذ حج روبرت إلى القدس. من المؤكد أن الصليبيين عند بداية الحملة لم يعاملوا اليونانيين كأعداء دينيين.

هل طلب أليكسيوس الحملة الصليبية؟ الجواب لا إن كان ذلك يعني أنّ أليكسيوس طلب تنظيم الحملة الصليبية على الشكل الذي اتخذته. ولكن لا يمكن الشك اليوم في أنّ البابا، في بياتشينزا، حيث عقد مجلسه في 1095 وحيث طالب السفراء البيزنطيون المساعدة لإمبراطورهم، تحدّث إلى المجلس بذلك الحسّ، رغم أنّ الواقعة موقع تحفّظ.

لكن هذه ليست المسألة الأهم، لأنّ المقصود من الحملة الصليبية صدقا ليس هو تجييش الجيوش لبيزنطة عبر الواسطة البابوية، ولهذا علينا أن ننهي بحثنا في الغرب.

***

يجب أن نبدأ بالبابا، لأنّ طلب النجدة وُجّه إليه وليس إلى الإمبراطور. لن أصبّ اهتمامي على الحقيقة التي ظهرت مؤخرا عن دارسي القرون الوسطى المختلفين ومفادها أنّ الكنيسة خرجت بنتيجة الاعتقاد بأن من حق، بل من واجب الكنيسة، في زمن ضعف السلطة الزمنية وأكثر من ذلك كلما أصبحت هذه السلطة

عدوانية، خوض الحروب بنفسها، هذه الكنيسة التي تركت السيف للسلطة الزمنية وكانت راضية بحصر اهتمامها في تشجيع الحروب التي تمّ خوضها للدفاع عن المسيحية أو لتوسعها. كما ليس ببالي أن أصبّ اهتمامي كذلك على الفكرة المُصاحبة التي دارت بخلد غريغوري السابع والمألوفة لدى رجال الدين من خلفية طبقية إقطاعية بأنّ خوض الحرب قد يكون خدمة للكنيسة أو بأن النشاط الحربي المميت الذي خاضه بعض الأسياد الإقطاعيين، والتي حاولت حركة «الهدنة وسلام الرب» (اسم الحركة الأصلي هو «السلام وهدنة الرب») الحدّ منها، وإن لم تنجح في إنهائها قد تتحوّلُ إلى حرب من أجل الدين. كان كل هذا غريبا عن الذهنية البيزنطية، لأنّ البيزنطيين كانوا معظم الوقت في حرب مع جيرانهم المسلمين. ولأنّ [حاملي] رمز الصليب والأساقفة شاركوا في هذه الحملات، فقد صُنِّفوا على أنّهم ينتمون إلى ما قبل الحملات الصليبية. يجب أن نحترس من اختلاط التفكير علينا. إنّ اعتبار الشعب البيزنطي لبعض هذه الحروب على أنها حروب مقدسة صحيح تماما. لكن الكنيسة البيزنطية رفضت دائما فكرة أنّ المشاركة في حروب كهذه قد يكون فضيلة مسيحية من شأنها التقليل من العقوبات يوم القيامة. كانت الكنيسة الغربية يومذاك تعلن، وإن بتحفظ، بأنّ الحرب في سبيل الدين من شأنها غفران الخطيئة. أخذ مفهوم الحرب المقدسة إذا شكله النهائي في الغرب.

أخذت فكرة وممارسة الحرب المقدسة شكلهما النهائي تحت الرعاية البابوية. أعتقد أنه من الملائم رسم بعض المعالم بدقة أكثر مما سبق وحدث، رغم أن الوقائع بهذا الشأن بيّنة ومعروفة، لأنه من المهم أنّ التأكيد على أنّ المبادرة في الحرب المقدسة ضد المسلمين أخِذت قبل موقعة مانزيكرت، وبالتأكيد قبل مجيء المرابطين. كان الهجوم الإسلامي سابقا هو الذي فرض على المسيحيين في إسبانيا أو البابوية في إيطاليا حمل السلاح، وحمل الكنيسة نتيجة لذلك على التحول عن شعارها الأصلي. لكن تجب الإشارة إلى أنه في هذه اللحظة في القرن الحادي عشر كان التهديد الإسلامي، أبعد ما يكون عن التقوّي، بل قد اختفى تماما. كانت الدول الإسلامية في إسبانيا وشمال إفريقيا وصقلية قد بدأت بالانهيار. فقد أدى الصراع الداخلي فيها إلى التخلّي عن الهجوم الخارجي. ساد في إسبانيا على الخصوص جو من التعاون النادر بين الدينين المتنافسين، ولم تشهد القرون الوسطى مثيلا له إلا نادرا، رغم تناقضه البادي. ولم يسبق أن كانت تلك الهدنة على الشكل الذي كانت عليها بالنسبة إلى المسيحيين في الأراضي الإسلامية الغربية. لقد ساء الوضع في مكان وحيد فقط، لم يعد بمستطاع مسلمي شمال إفريقيا الانصراف إلى التجارة التي كانت مصدر رفاههم وقد خرّبهم غزو العرب الهلاليين (من بني هلال)، ودفع بهم إلى الموانئ. لقد أصبحوا ما عُرف بقراصنة «بارباري»، حركة كانت لتستمر بين غزو وانقطاع عنه حتى بداية القرن التاسع عشر. لكن لا يبدو كما لو أنّ روما كانت لتأمل بتحريك الجيوش ضد هؤلاء. قد يكون السبب هو الحملات التي نظّمها البيزاويون (من بيزة:) والجنويون (من بيزة وجنوة: مدينتان إيطاليتان) في 1088 ضد ميناء تونس الرئيسي المهدية التي حصلت على مباركة البابا فيكتور الثالث (لكن هذا يبقى قول كاتب سيرته فقط)، لكن بالتأكيد لم يحصلوا

على أية مساعدة تستحق الذكر منه أكثر من ذلك. تمت مراسلات حقا بين غريغوري السابع مع أمير بوغي، ولربما تضمنت تفاهما مشتركا كان ليشكل ردّا على عدائية غريمه التونسي، لكن المراسلات همت بالأساس المسيحيين المحليين تحت حماية الأمير المسلم، وكذلك، بالواضح دون شك، شؤون التجار الرومانيين الذين منحوا دعمهم المالي للكرسي الرسولي. لم يكن الجهد العظيم للبابوية بهذا الاتجاه، وهنا أيضا قد يكون النورمنديون السبب. عقد كونت صقلية السلام مع أمير سلالة بني تميم التونسية، وضمِن له بأنه لن يمد يد العون لإخوانه في الدين أكثر مما فعل، بعد أن هزم إمداداته إلى مسلمي صقلية. ولم تكن نية روجر الإخلال بالسلام المنعقد، ورفض عرض البيزويين تسليم المهدية له. بعد ذلك، وبعد أن أكمل فتح القسطنطينية استولى على مالطا، لكن يبدو أنّ الجزيرة لم تكن آنذاك جزءا من سلطان بني تميم. بعد ذلك خدم جنود مسلمون في جيوش روجر، ومكنّوه من النجاح ضد قوى مسيحية منافسة في إيطاليا.

كان تدخل الكرسي الرسولي الرسمي الأول على الجبهة الصقلية وفي ظروف غاية في الأهمية على كل. قدّم القادة النورمنديون آيات التبجيل للبابا عام 1059 إبان الحلف النورمندي البابوي، وكان من بين الأراضي التي امتلكوا حق إخضاعها، إضافة إلى تلك التي أخذوها من بيزنطة، صقلية المسلمة، بعد ذلك كان روجر ليتسلم امتياز أن يكون مندوب البابا الفائق في الجزيرة، وظيفةٌ كانت حكرا على رجال الدين. لكن تبدت في الوهلة الأولى معالم السياسة البابوية. كانت البابوية تستحسن من جهة، بل تعلن (بمعنى قانوني صرف، لأنّ النورمنديين كانوا قد أصبحوا خدما لها) الحرب الهجومية على الإسلام (أو هجوما مضادا إن شئتم للقبض على المهاجمين المسلمين)، ومن جهة أخرى أقامت البابوية سلسلة من السلطنات الزمنية (الدنيوية) ضدا على الإمبراطورية التي كانت تحرّر نفسها منها، سلطنات رغم غموضها من وجهة نظر قانونية إقطاعية، إلا أنها عبرت عن محاولة للتخلص من موارد كانت تحت تصرف الإمبراطورية. لقد عَنى إخضاع النورمنديّين لصقلّية وجنوب إيطاليا أكثر من ذلك استعادة الكنيسة اللاتينية في أرض، حيث كانت قد ضعُفت ليس فقط من قِبَل الهجوم المسلم، بل أيضا من قبل الهجوم البيزنطي. من الصحيح أنّ البابا والنورمنديين اتبعوا منهجا سمحا تجاه الترتيب الكنسي اليوناني لجنوب إيطاليا، لأنّهم لم ينظروا إليهم على أنهم متواطئون مع بطريركية القسطنطينية، كان هدفهم، الذي تحقّق في جزء منه، جلبهم إلى طاعة روما المباشرة عبر منحهم قدرا من الاستقلال التهذيبي والطقسي.

يمكننا رؤية هذه التوجّهات المختلفة قيد التطبيق في إسبانيا. لم يكن تدخل أسياد شمال البيريني في البداية من عمل البابوية. لقد كان أمراء شمال إسبانيا متلهفين لاستغلال ضعف الإسلام الإسباني بالتوسع على حسابه، ورحّبوا بالأسياد الفرنسيين إلى الجوار كأحلاف عسكرية مفيدة. ومن جهة أخرى، كانت مهمّة استعادة المسيحية في إسبانيا في قدر مهمّ منها تنجز تحت تأثير كلوني (بلدة في منطقة بورغندي شرق فرنسا). بالكاد نستطيع الشك بأنّ أهم جزء في المشاركة الفرنسية في الحرب الإسبانية، والذي يعود الفضل

فيه إلى كلوني، لعبه البورغنديون والذين لم يكن لهم مصلحة فيه. لم يكن ما أطلق عليه خطأً حملة بارباسترو الصليبية (1063) سوى نتيجة لهذا الوضع.

لكن إن كان تدخّل ألكسندر الثالث، الذي تعود علم التأريخ التقليدي على عزو حملة بارباسترو إليه، لِيعالج ارتباطه المحتمل ببعض المشاريع الجديدة مع نهاية قداسه الحبري، ومع ذلك لم يعد متوفرا أيّ شك حول تدخله، ولا يغير تقدمه البطيء شكله الأساس أكثر من تغير سياسة غريغوري السابع التي شكّلت استمرارا له. هذا دون ذكر تأثير كلوني على البابوات التي أنتجتهم. كان الرجال الذين شجعهم الكرسي الرسولي للذهاب إلى إسبانيا على ارتباط إلى حد ما بنورمنديّي إيطاليا. لكن لا يبدو هذا جوهرا للمسألة. قلت في بداية هذا المقال بأنّ الفرنسيين أحضروا معهم إلى الحرب الإسبانية روح وحشيةٍ عمياء كانت غريبة على الإسبان. كان الكرسي الرسولي يتبع سياسة إعادة إدماجٍ ديني في إسبانيا، كما في جنوب إيطاليا، في الوقت عينه. فقد ادّعى أنّ لروما حقّا خاصّا في السيادة الزمنية على الأراضي التي استولوا عليها، مرّة أخرى، من الكفرة. استلهمت الكنيسة الإسبانية من عزلتها التاريخية استقلالا تقريبيا وشعيرة خاصة بها، شعيرة بدت خطيرة من وجهة نظر الإصلاح نفسه، واستدمجت كذلك وجهة نظر رومانية مفادها أنّ الإصلاح يجب توجيهه من طرف البابا. أخذ في التطوّر بالمكان نهجا كلونيا (من كلوني) تجاوز بعد ذلك مخططات كلوني، نُظِر من خلاله إلى إسبانيا على أنها منطقة محمية خاصة. كان الحبر الروماني يستولي على كنيسة إسبانيا، وليستغل التدخل العسكري الفرنسي، لعقد صفقة بنفس الطريقة كما حصل مع اليونانيين. كان هناك سبب آخر لإجراء الحبر هو أنّ التأثير غير الإسباني سيتقوى في الإقطاعات تحت تصرف الأسياد الفرنسيين، كما كان الحال مع تلك التي كانت تحت يد النورمنديين في إيطاليا.

ساد بين الأمراء الإسبان أنفسهم توجّهان: كانت آراغون منفتحة على التأثيرات الوحدوية بحكم موقعها الجغرافي، ودخلت إقطاعات الكرسي الرسولي كما النورمنديين. على الضد من ذلك كانت تطلعات الرومان في قشتالة موضع صراع، والذي ربما بدأ مع وقوفه سببا لتخلي ألكسندر الثاني على مخططه العسكري. لم يكتب لذلك النجاح مهما كان السبب. ليس واضحا ما إذا كان الدعم الروماني الرسمي للوحدات الفرنسية التي شاركت في الحملات التي تلت قبل وبعد الغزو المرابطي وخصوصا ائتلاف 1187 العظيم الذي تلى ذلك الغزو. على كل حال، لم يكن البطل المفدى في التقليد الوطني الإسباني لا فرنسيا ولا رومانيا، بل كان «القائد». وهو الذي ميز نفسه ليس فقط في صراعه مع المسلمين، بل أيضا مع المسيحيين أحيانا في فالنسيا التي احتلها، كان شهيرا كذلك مع رعاياه المسلمين كما مع إخوانه في الدين. لقد نقض الفرنسيون عهدهم في كل من بارباسترو وتوديلا (1086) وذبحوا المسلمين الذكور قبل أن يستولوا على نسائهم. كان أوربان الثاني، وهو رجل ليّن أكثر من غريغوري السابع، هو الذي كان بمستطاعه تحصيل صلح الكنيسة الإسبانية

في النهاية عبر بعض التنازلات التأديبية، ومهما كان الدور الذي لعبه في هذه الحملات، فمن المؤكد أنه شجعهم على أقل تقدير في البداية.

لكنّه لم يبحث عن دعم للبورغنديين، بل للقوى المتوسطية. لم تتخلّ روما يوما عن بسط تأثيرها حيثما واتت الفرصة على الملكيات الأبعد عنها كمملكة وليام النورمندي الفاتح في إنجلترا. لكن يبدو أن اهتمام البابوية كان منصبّا على إحاطة نفسها بدائرة دول متوسطية تابعة، وبأحلاف قادرة على مساعدتها ضد الإمبراطور الألماني والإسلام وحتّى بيزنطة إن هي فكّرت في الالتفاف عليها. تبدو كنيسة القديس فيكتور المارسيلي (من مارسيليا) في هذه المخططات في منافسة مع كلوني. أصبح كونت بروفونس (1081)، وفيكونت ميغوي-مونبوليي (1085)، وكونت برشلونة إبان حِبرية أوربان الثاني كلهم تابعين كماتيلدا كونتيسة توسكاني، التي ورّثت ممتلكاتها للكرسي الرسولي، وغريغوري الذي منح التاج الملكي لزفونيمير أمير الكروات (من كرواتيا). حافظت البابوية على علاقات متينة مع رايموند السانجيلي (من ساينت جبل) الذي أضاف بالتتابع مقاطعات تولوز (1088)، وبروفونس (1094) لإرثه اللانغدوكي (1066). كان رايمون سنة 1087 أحد القادة في ائتلاف مواجهة المسلمين ضد إسبانيا وكانت مجموعة من وحداته لِتشارك في العمليات في السنوات التي تلت، حيث ستتلقى التشجيع من أوربان الثاني بعد تسلمه البابوية. الملاحظ أنّ هذه العمليات لم تكن موجهة ضد المرابطين، بل ضد مسلمي شمال إسبانيا المستقلّين الذين اعتُبروا على الأرجح حلفاءهم، لكن هذه العمليات أدت إلى خضوع المسلمين الشماليين للمرابطين. كانت النتيجة أنّ إسبانيا في بداية القرن الثاني عشر لم تمتلك سوى الحرب المقدسة ضد الحرب المقدسة، كانت نتيجة ذلك أنّ السلالة الحاكمة الجديدة (أيّ الموحّدين)[1] سنّت سياسة تعصّب تجاه رعاياها من غير المسلمين ضدا على تقاليد من سبقوهم خلال منتصف القرن.

رغم أنّ الإدراك اكتمل منذ زمن بأن مشاريع أوربان الثاني الشرقية كانت معروفة بأنها على ارتباط بمشاريعه الغربية، حيث شكلا حروبا ضد المسلمين، وأن نفس الرجال الذين خبروا الحرب في إسبانيا كانوا أنفسهم هم الذين أرسلهم إلى فلسطين، فإنه قليل اهتمام كان ذلك الذي حظي به واقع أن سياسة الكرسي الرسولي الإسبانية قد تقدم تفسيرا لنهجها في الشرق فيما يتعلق بالحملة الصليبية. يمكن اعتبار أن البحث المتأخر أسس لفكرة أن البابا أرسل الحملة الصليبية مع مهمة التعاون الكامل مع أليكسيوس كومنينوس، ومندوب آدمار المونتيللي ورايمون التولوزي، الذين فوض إليهم أوربان أمر قيادة الحملة، حاولوا بإخلاص إنجاز مهمتهم ضدا على انحرافات الصليبيين الآخرين. لكن طريقة تقديم هذا الطرح ظلّت منحازة. بالكاد يمكن نكران أنّ ما تطلع إليه أليكسيوس أصلا كان تقويةً من نفس النوع كتلك التي قُدِّمت من قبل قوات المرتزقة الذين استعارت بيزنطة خدماتهم لخدمة أهداف بيزنطة حصرا. كما لا يمكن نكران أنّه كان

1- هم سلالة بربرية مسلمة حكمت المغرب الأقصى والأندلس منذ بداية القرن الثاني عشر الميلادي إلى منتصف القرن الثالث عشر (المترجم).

من واجبه استطلاع أنّ خطة دعم البابا، عندما تبدّت معالم المشروع، كانت ستكون أكثر استقلالا: من الصحيح أنه أراد فرض قسم الولاء والنجاح فيه، وهو القسم الذي يُلزم قادة الحملة بألا يحتفظوا بأية أرض يحتلونها، والتي كانت مسبقا جزءا من التراب البيزنطي القديم، لكن لم يكن هناك أي شيء ليمنعهم من اتخاذ مستعمرات لهم في سوريا وفلسطين، حيث ربما فكر هو نفسه بذلك. كان من الواضح أنه ما دامت الحملة من شأن البابا، فإن مسألة قسم الولاء من البابا أو مندوبه لم تكن مطروحة، وعلى ضوء هذا، وبالرغم من أن أحدا من مؤرخي الحملة الصليبية لم يفهم هذه النقطة، فإن من المفهوم تماما أن رايمون التولوزي كان يجب أن يرفض القسم، لو كان حقا سئل ذلك. إن كان هذا هو الحال، فإن من الواجب الإقرار حالا بأن أوربان أراد نجدة الإمبراطورية البيزنطية دون أي تحفظات نفسية، بالرغم من ذلك فإن من الصحيح أنه امتلك مخططا خاصا به. يمكن معرفة هذا المخطط بالاستدلال فقط، لأنه لم يُحتفظ بأي نص يفسر هذا، وليس هناك أي سبب لوجود هذا النص. بالكاد، على كل، نستطيع نكران أنّ المخطط شمل تأسيس سلطة لاتينية أو شبه لاتينية في سوريا، والتي ليس بإمكاننا التفصيل في شكلها. ستكون دولة كهذه تابعة للكرسي الرسولي في مناح عدة، وحتى لو بقي رجال دين يونانيين في سوريا، كما في جنوب إيطاليا، أو كما بقي رجال دين إسبان في إسبانيا، فستكون هناك سيادة جديدة للكرسي الرسولي، قد يتم هذا برضا بيزنطة المُستعادة، لو أنّ الحملة كتب لها النجاح، لكن ستتضمن واقع أنّ بيزنطة التي أُضعِفت كان يتم استبدالها جزئيا أو كليا من قبل الكرسي الرسولي المُتقوّي. قد يسير هذا عكس تيار تأثير القسطنطينية على المسيحيين الشرقيين، أصحاب الشعائر اليونانية وآخرين، وكلهم سيتم جمعهم لخلق جو جديد للتأثير اللاتيني، وهذا عوض التضامن الجزئي للبطريركيات الشرقية الأربع، وكان هذا ليستتبع عزل بطريركية القسطنطينية التي كانت قد فقدت نفوذها. كان المخطط الموضوع لفلسطين امتدادا لما كان قد بدأ في صقلية وإسبانيا، والذي كان يزيد من هيبة البابوية عبر استكمال سلسلة مواقعها المتقدمة. ولا يفيد في أي شيء القول بأن فشل المشروع ضدا على فكرة أنّ هذا كان قصد البابا.

لقد كان هذا تصوّر البابا أوربان للحملة الصليبية عندما خطب في كليرمونت. كما في إيطاليا وكما في إسبانيا، لم يكن ذلك زمنا للهجوم الإسلامي. ضعُف الخطر التركي، رغم حداثته، منذ موت مالك شاه في 1092. كان ورثته في صراع. وكانت مكائد أليكسيوس في آسيا الصغرى كافية لإبقاء زعماء التركمان على خلاف بينهم في آسيا الصغرى. كان هناك رجاء بأن يتم إعادة الأقاليم تحت سلطتهم إلى الإمبراطورية، كما حدث في معظم الحالات السابقة. لم يكن الأمر مستعجلا ولا ميؤوسا منه عندما طلب أليكسيوس العون في بياتشينزا. كان بالأحرى مُلتَمَساً ولد من رجاءٍ في المساعدة لإعادة الفتح الذي أصبح ممكنا. ليس هناك شك في أنّ أوربان كان على علم بذلك، أو الظن بأن طلب النجدة هذا لم يكن تشجيعا له على التحرك. وتحركه الذي ائتمن عليه حليفه القديم والمخلص رايمون حاكم تولوز، الذي خبر الهجوم في إسبانيا، وكذلك مندوبه آدمار صديق رايمون. إنه لم يستطع التطلع أكثر من ذلك إلى الأمام دون شك.

***

تدخّل في هذه المرحلة الطرف الثالث الذي حول الحملة الصليبية تماما وجعلها على الضد مما كانت عليه، ومنحها الصورة التي ستعرف بها لدى الأجيال القادمة: أي حركة «جماهيرية». من الصحيح أنّ أوربان الثاني توقّع أنّ قوات رايمون ستتعزز بقوات من الأراضي المجاورة، فقد خطب البابا نفسه لصالح الحملة في غرب فرنسا المركزي، وكانت خطبته بداية لمثيلات لها في مناطق أخرى من البلاد المسيحية. لقد تجاوزته الأحداث. بالكاد نستطيع الادّعاء بأننا نملك أي شيء كتبه عن الحملة، لكنّ رسالته إلى بولونيا تشير إلى أنه كان يحاول حصر فيضان في 1096، فيضانٌ لو ترك دون مراقبة فسيكون ذا سوء بالغ للنظام وللسيطرة الضرورية على الحملة من قبل رجال الدين. وكان لقوى لم يتوقعها أن تترك دون مراقب لتحول الحملة إلى شيء مختلف جدا عما تمناه.

ماذا كانت هذه القوى؟ تدفقت غالونات من المداد بصدد مناقشة إن كانت الحملة في هذه المرحلة أكثر أو أقل تدينا أو سعيا ذاتيا. لقد اختلف الناس حسب تصوراتهم الأولية في النظر إلى الحملة: فمنهم من رأى فيها دليلا على طهرانية الإيمان الديني، أو جشعا ميركانتيليّا إقطاعيا صريحا. إن استحضارا للمسألة على هذا الشكل مخطئ بالتأكيد، لأنه لم يكن الانضمام إلى الحملة من قبل جماعات وأفرادٍ رأوا فيها فرصة للاغتناء هو الذي جعلها مختلفة عما كانت عليه في الأصل. لم يكن الحماس الروحي والجشع المادي مختلفيْن عن بعضهما البعض في ضمائر جنود الحملة (كما أنه لم يكن كذلك في ضمائر ثوار 1789)، والإشكال ليس في وزن أحدهما ضد الآخر، بل في محاولة فهم إلى أيّ حد يفسر أحدهما الآخر. من الطبيعي أنّ علاقتهما لم تكن مشابهة في كل مكان، وليس بمستطاعها أن تقودنا إلى نتيجة عامة.

لقد قيل الكثير عن الجشع الميركانتيلي، لأنّ الأرباح التي جناها التجار الإيطاليون من الحملة معروفة تماما. لكن ما أدركه التجار فورا عندما اقتُرحت الحملة كان مخاطرها، ومن ضمن ذلك خطر خسارة المواقع التجارية التي وطدوا فيها العلاقة مع التجار المسلمين وفي بلادهم قبل الحملة. من الصحيح أنّ آمالفي التي لعلها كانت الأفضل في التجارة الشرقية، والتي سجلت آنذاك احتقانا متزايدا ضد النورمنديين، كانت في وضع عجزٍ لا تحسد عليه، لكن المدن البحرية الإيطالية الأخرى كانت حذرة من ألا تشارك في المشروع بأي شكل إلى أن تتحقّق من نجاحه عمليا، وآنذاك ستحاول تأمين حصّتها من الأرباح. أما فيما يخص البندقية، فإن ما كان مهما بالنسبة لها هو السوق البيزنطي، ولم يكن هناك شك في عدم مشاركتها في أية حملة باستثناء التحالف مع الأسطول البيزنطي، حتّى يتجاوز الصليبيّون الحدود التي تطالب بها بيزنطة. أمّا بالنسبة إلى بيزة، فإنّ اهتمامها الأساس كان منصبا على عدم التشويش على القوات ذوي الفائدة الأكبر في الصراع مع القراصنة المسلمين في الغرب. لم يسارع إلاّ الجينيويون (من جنوة) لمدّ يد المساعدة للصليبيين

في الشرق، لكن ستتم ملاحظة أنّهم أتوا أفرادا، فجنوة نفسها لم تتدخل قبل المدن الأخرى. لم ينتشر بالكامل تجنيد الصليبيين في إيطاليا قبل 1100 وبعد الحملة، باستثناء حالة بوهيموند النورمندية الخاصة في جنوب إيطاليا. ولم يكن من المرجح أن يشجع البابا ذلك، وهو الذي كان منشغلا بالصراع مع الإمبراطورية. لقد ولدت الحملة الصليبية في أراض حيث لم تكن فكرة الربح التجاري ذات صيت، لا يصح إذا الحديث عن هاجس الربح هنا.

لقد وُلِدت الحملة الصليبية على أرض فرنسية، وعندما تم تجاوز المبادرة البابوية، توافد أتباعها من الشمال بالأحرى، وليس من الجنوب حيث وقف رايموند لوحده حتى بعد الحملة. لكن ما يفاجئ المرء مباشرة، حتى في فرنسا، هو انقسام الصليبيين إلى فرقتين. لقد تم الإدراك بأن حملة البارونات الصليبية سبقتها حملة الشعب الصليبية، لكن التبعات الاجتماعية لهذه الحقيقة لم يتم التركيز عليها بما يكفي. لقد حارب أبطال الشعب سابقا في إسبانيا في 1087مع البارونات، وعلى كل حال فقد كان السيد الإقطاعي محاطا برجال مسلّحين. لكن جديد 1093، وما لم يتم إعادته في حملات لاحقة هو أنّ حملة الشعب الصليبية كانت مميزة عن حملة البارونات الصليبية. بطريقة أخرى، لقد تمت الحملة كما لو أنّ البناء الطبقي الإقطاعي للمجتمع الفرنسي في القرن الحادي عشر لم يكن موجودا. إن لم يكن ذلك تمرّدا، فقد كان على الأقل شرخا. كان هذا زمن حركات السلم، وزمن الاستقلال الحضري الوليد، وكلاهما واعيان بأنهما ظاهرتان معاديتان للسيّد الإقطاعي.

كان هناك شرخ آخر إلى حد ما، لأنّ السادة والعامة وجدوا أنفسهم على الجانب نفسه في مواجهة الأساقفة. صحيح أنّ الحملة الصليبية كان لها قساوسها، أبطال الناس، ولم ينكر أحد يوما الفضل العظيم للبابا وموفدِيه، لكن لم يكن هناك مجندين أسقفيين في هذه الحرب المقدّسة. كان هذا زمن دعم الناس لإصلاح الكنيسة ضدا على (إرادة) المطارنة، الذين كانوا في معظم الحالات أسيادا زمنيين، وليسوا رعاة أبرشية. أما بالنسبة إلى البارونات الكبار، فلم يكن ترك القيام بواجب الحرب للآخرين من فعلهم.

ماذا كانت الحالة الذهنية للبارونات وللناس العاديين؟ ما الذي جذبهم إلى المشاركة في مشروع لم يُسمع به سابقا؟ طلب النجدة البيزنطي هو جزء من الجواب. لقد كان الجزء الآخر تزايد عدد الحجاج في القرن الحادي عشر، إن لم يكن وضعهم ووضع المسيحيين في فلسطين قد تغير كثيرا، وجاءت هذه الزيادة عبر تحسن العلاقات التجارية، وعبر اعتناق الهنغاريين للمسيحية الذي سمح لهم باستعمال طريق الدانوب البحري. كل حادث، وكل تقرير عن مشاكل مسيحيّي الشرق سبق له وأن مس القليلين، أصبح يمس في ذلك الحين جمهورا أوسع نتيجة لذلك. لم يكن تدهور الوضع في الشرق هو ما يفسّر الحملة الصليبية، بل كانت مصلحة الغرب العظمى إلى حد ما هي ما تفسر الحملة.

ولكن من الواضح أكثر من ذلك الآن أنّ كل هذا لم يكن ليعني أي شيء لو لم يكن الكثيرون في الغرب على استعداد مادي وأخلاقي ليخوضوا هذه المغامرة العظيمة والرائعة. ليس هناك حاجة هنا لنمرّ على ما سبق وقيل لآلاف المرات عن حماس الدين وتحجره وعسكريته، والاضطراب الاجتماعي على جميع المستويات في فرنسا مع نهاية القرن الحادي عشر. ومن بين من غادر كان العاميون الذين كانوا مستعدين للرحيل لأول وهلة، والذين لم يكونوا يملكون شيئا ليتركوه خلفهم، ومن بينهم كذلك اللوردات الذين كان عليهم تسوية أمورهم، كانوا بطيئين، لكن ليس الأقل عزما، لقد تحرك الناس بحثا عن الفوائد المادية والروحية الآنية، متطلعين إلى العودة إلى أرض الرب تلك، بينما تحرك اللوردات بهدف تمضية بقية حياتهم في الحرب المقدسة، ولتأسيس أنفسهم في أرض جديدة رائعة حيث سيحصدون جائزة خدمتهم للرب أولا في هذا العالم، وفي العالم الآخر بعد ذلك. لقد كان القديسون لوحدهم يؤمنون بأن نعيمهم لن يبدأ هنا في العالم السفلي ...إنّ المهم هنا هو ليس درس المعتقد، وهو موجود بين الأكثر دنيوية، الذين كانوا، بين آن وآن، الأكثر طمعا في الفداء، لأنهم يعلمون أنهم دنيويون، بل لِمَ حثّهم الدين على أن يغادروا لأجل الحملة الصليبية. تخبرنا بعض الكتيّبات المحترمة في أجزائها عن الحملات الصليبية بأنّ روح الحملة الصليبية انقبضت بعد الحملة الأولى، لأنّ الإيمان نفسه نقص. لكن يجد قرّاؤها أنّ نفس الإيمان، وفي أجزاء هذه الكتيبات عن الفن وحياة الرهبنة، هو الذي ألهم الكاثدرائيات القوطية وأنتج أمثال القديس فرانسيس والأكويني في القرن الثالث عشر. لذلك علينا تفسير التغير في تمظهر الدين السطحي، وليس تفسير تراجع الدين. فبينما كان الناس في القرن الحادي عشر مستعدين للسعي بعيدا بحثا عن فرص حياة أفضل، حياة بدأوا بالاعتقاد لأول مرة وبارتباك بأنها ممكنة، وفي سعيهم ذاك واجهوا عددا من العراقيل والمصاعب. كان نفس الإيمان هو الذي تلقى كمُستحَقٍ الكاتدرائيات التي أقامها سكان البلدات الذين تمسكوا بحقهم في حياة الكرامة في بلدهم.

هذه بعض الاقتراحات الوجيزة التي لا يتسع مجال المقال للعمل عليها. إنّ هذه الاقتراحات تؤكد أنّ على دارس الحملة الصليبية أن يدرسها كظاهرة اجتماعية. لا ينتمي أبدا أي عنصر شكّلها إليها على الخصوص. إنّ بها شبها عائليا بأخريات مثيلات لها ككل الحركات التاريخية العظيمة، للهجرات العظيمة إبان الفترة العتيقة وأحيانا للحركات المعاصر التي أتت استجابة لنداء رباني. إنّ ما يجعلها فريدة هو جمعها لعناصر متباينة التأمت وتغيرت واندمجت في نمط جديد. ستُظهر دراسة كهذه ما كان أصليا في الحركة، ليس بحُكم خاصية ذاتية محتملة، بل لأنها كانت جمعا فريدا لعوامل تضافرت وأخرجت إلى الوجود نتيجة مختلفة في النوع عن أي شيء كانت لتحققه منفردة.

بخلاصة: إنّ التطورات الداخلية في العالم الإسلامي إبان القرن الحادي عشر أثارت في الشرق الرغبة في استعادة قوة الدين الهجومية للإسلام في شكل جديد على حساب المسيحية البيزنطية، لكن دون أن يمس بالمسيحيين في المناطق التي فتحها الإسلام قديما، أو بالحجاج الغربيين في فلسطين. لكن الهزيمة

البيزنطية والتطورات الداخلية في الغرب قادت العالم الغربي إلى حوطِ مظالمه بأهمية خاصة لم تحظ بها مشاكل من هذا النوع في السابق في نظرهم. لقد تطور مفهوم سياسة الحرب المقدسة في الغرب ضد الإسلام، دون إثارة جديدة منه، ونتيجة للتدبير البابوي في جزء منها. لقد رأت البابوية في الحملة الصليبية وسيلة لتدبير استعادة الوحدة المسيحية تحت قيادتها، وكأحد أهداف حركة الإصلاح كما تصورته البابوية، وكضرورة كذلك لاستمرار البابوية في مقاومة الإمبراطورية. إنّ جميع هذه العناصر المُشكَّلة يفسر كيف أنّ حملة قامت ضد القدس، حيث لم تبررها الظروف آنذاك أكثر من أي وقت سابق على ذلك.

ملاحظات بيبليوغرافية

إن الأسئلة قيد المناقشة هنا أعمّ من أن تحظى بمراجع مفصّلة. كما يمكن إيجادها في الأعمال الكلاسيكية التي تغطي الشُعَب المختلفة للتاريخ العام. يمكن إيجاد الأكثر إلماما في «التاريخ العام: الجزء الثاني» لكلوتز، و«تاريخ الكنيسة» ج الثامن (1944). سأحيل هنا على بعض المنشورات الحديثة والنادرة. أولا بالنسبة إلى الوضع كله في الشرق، فإنّ الإحالات المرجعية يمكن إيجادها في مقالي: «لماذا سماها الفتح التركي الحملة الصليبية؟» منشور في:

Bulletin de la Faculté des Lettres de l'université de Strasbourg, novembre 1950

والتي يشكّل الجزء الأول من هذا المقال إعادة إنتاج له، أما بالنسبة إلى الجزء الأخير فانظر:

بالنسبة إلى إسبانيا:

M. Defourneaux, Les Français en Espagne aux XIe et XIIe siècles, Paris I949 (avec bibliographie).

P. David, «Grégoire VII, Cluny et Alphonse VI,» in Etudes historiques sur la Galice et le Portugal, Paris-Lisbonne, I947, PP. 341-439

R. Menendez Pidal, La Espana del Cid, fourth edition, Madrid, I947

بالنسبة إلى صقلية:

Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia, second edition, a cura di Nallino etc., vol. III, Catania I937

بالنسبة إلى شمال إفريقيا:

Georges Marcais: La Berberie et l'Orient au Moyen-Age, Paris I946

Ch. A. Julien: Histoire de l'Afrique du Nord, second edition, revised and corrected by A. Le Tourneau, Paris 1951

C. Courtois, «Gregoire VII et l'Afrique du Nord,» Revue Historique 1945

R. S. Lopez, «Le Facteur économique dans la politique africaine des Papes,», 1947

بالنسبة إلى بيزنطة:

Stephen Runciman, A History of the Crusades, vol. I, Cambridge 1951

Jugie, Le Schisme byzantin, Paris 1945

Every, The Byzantine Patriarchate, London 1947

Grumel, «Jerusalem entre Rome et Byzance,» Echos d'Orient, 1939

Charanis, «Byzantium, the West and the origin of the First Crusade,» Byzantion 1949

A. Krey, «Urban's Crusade, success or failure?» American Historical Review 1946-47

E. Joranson, «The spurious letter of Alexis to the count of Flanders,» ibid. 1948-49

Hill, «Raymond of St. Gilles in the Pope's plan of Greek-Frankish Friendship,» Speculum 1951

B. Leib, Rome, Kiev et Byzance, Paris 924

W. Holtzmann, «Studien zur Orientpolitik der Reforminpapsttum,» Historische Vierteljahrsschaft 1924

idem, «Die Unionsverhandlungen ...,» Byzantinische Zeitschrift 1929.

بالنسبة إلى روما والغرب:

C. Erdmann, Die Entstehung der Kreuzzugsgedanke, Stuttgart, 1925

P. Rousset, Les origines et les caractères de la 1ère Croisade, Neuchâtel, 1945

Y. Lefèbre, Pierre l'Ermite et la Croisade, Amiens 1945

Delaruelle, "Essai sur la formation de l'idée de Croisade," Bulletin de Littérature ecclésiastique 1941-45; I953-4

ولا تدّعي هذه اللائحة بأنّها شاملة جامعة.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018

All rights reserved © 2018